مغارة جعيتا ... نحت دون ازميل

بقلم الصحافي نبيل حرب

جعيتا كلمة سريانية تعني الهدير أو الضجيج، وترجع التسمية هذه إلى الجلبة التي يحدثها تدفق المياه وصخبها في المغارة التي تعرف البلدة بها. وعلى ممر السنين استحوذت مغارة جعيتا على اهتمام البحاثة المحليين والعالميين، واعتبرت من أروع المغاور التي اكتشفت في لبنان والمنطقة. وهي بالفعل كنز من كنوز الطبيعة السلحرة والباهرة. فما أن تدخل المغارة العليا حتى تفاجأ ببهوٍ واسع الأرجاء أطلق عليه البحاثة لقب "الغاليري"، وتتوجه في الوسط بركة مياه متجمدة وهي في نقاء مياهها والانعكاسات التي تحدثها تكثف من بياض الرواسب الضاربة إلى الحمرة والمتدلية من السقف، فتبدو وكأنها ثريات مرصعة.

المغارة أشبه بالغابة المليئة بالترسبات الكلسية، وتشبه في بعض الأماكن الشموع الطويلة التي تدمع ذوباناً. واستوحى البحاثة أشكالاً مختلفة أطلقوا عليها تسميات كالفلينة والقرنبيط وبرج بيزا والصفصاف الباكي والدردنيل، وقد يعجب الزائر بهذه المناظر ويكتشف المزيد من اللوحات الجميلة النادرة. تقع مغارة جعيتا ونهرها الجوفي على بعد ١٨ كلم إلى الشمال من بيروت، وهي تشكل النبع الأساسي لنهر الكلب الذي يمد العاصمة اللبنانية بيروت ونواحي المتن الشمالي وكسروان بمياه الشفة. ويبلغ علو المغارة عن سطح البحر ٦٢ متراً وطول الدهليز الذي اكتشف العلم ١٩٥٤ نحو ستة آلاف ومئتي متر، ويعتبر هذا الطول (أو المسافة) الحد النهائي الذي لم يتجاوزه أحد منذ ذلك الوقت. أما كيف تمّ اكتشاف المغارة، ومن البحاثة الذين سبروا أغوارها، وخلال أية مراحل ... فأسئلة يجيب عليها السيد سليم بارود أحد المسؤولين في بلدية جعيتا، سارداً حكاية المغارة من الألف إلى الياء.

في العام ١٨٣٦، وربما كانت المرة الأولى، كان صياد أميركي يدعى طومبسون يقوم برحلة صيد في جوار المغارة، فاكتشف المدخل وسبر جوف المغارة ووصل إلى

عمق خمسين متراً، وهناك أطلق عياراً نارياً فتردد الصدى مراراً، مما أكد له وجود سرداب طويل تحت الأرض، ولكنه توقف عند هذا الحد. بعد ٣٧ سنة على هذه التجربة الشخصية أو المبادرة الفردية التي قام بها طومبسون، اتجهت أنظار البحاثة من جديد إلى مغامرة اكتشاف أعماق المغارة. وفي سنة ١٨٧٣ كلّف مكتب مياه بيروت عدداً من المهندسين الأميركيين بمهمة سبر أعماق المغارة. فانطلقوا على عوامة مؤلفة من ألواح خشبية حتى بلغوا ألف متر. وتأكداً لهذا الحدث وضعوا زجاجة فارغة في مكان أسموه "بانثيون"، وما تزال حتى اليوم وإن كانت فقدت شفافيتها بسبب القشرة الكلسية التي غلّفتها.وتوالت الرحلات الاستكشافية داخل المغارة حتى بلغت العشرين. وفي العام ١٩٢٤ حاول الدكتور لامارش اجتياز المنحدرات لكنه لم يتخط الحدود التي تمّ اكتشافها العام ١٨٧٣.

وفي العام ١٩٢٦، حاول البروفيسور وست اجتياز المنحدرات على عوامة مصنوعة من ألواح محمولة على اوانٍ معدنية ملحومة، فنجح في اجتياز نحو ١٦٠٠ متر. وفي العام ١٩٢٧ تقدّمت بعثة بقيادة تومبسون حتى عمق ١٨٠٠ متر، غير أن منحدرات خطرة أوقفت الرحلة. وفي العام ١٩٥١ تأسس النادي اللبناني للتنقيب عن المغارة، جامعاً عدداً من البحاثة والمنقبين اللبنانيين أمثال: غرّة وكركبي وخوام ومخباط والزغبي وكسباريان وسواهم. وتوالت جهود النادي بقيادة سامي كركبي على مراحل عدة حتى العام ١٩٥٤. وفي إحدى المرات ظل أعضاء النادي داخل المغارة سبعة أيام متتابعة مما أتاح لهم تحقيق رقم قياسي لم يبلغه أحد من قبل وهو ٦٢٠٠ متر. وفي ذلك العمق عثروا على جدول مياه قوي منع الفرقة من الاستمرار في التقدم.

أما عن كيفية تحويل المغارة إلى مَعْلم سياحي والمراحل التي تطلّبها هذا العمل، فيقول السيد بارود: "في العام ١٩٥٥، وخلال شهر آب، دشّن الرئيس الراحل كميل نمر شمعون بدء العمل لتأهيل مغارة المياه. وفي عام ١٩٥٧ بدأ الزائرون الدخول إلى مغارة المياه، وبلغ المعدل اليومي ٢٠٠٠ زائر. لكنّ السياحة في هذه المغارة تتوقف خلال فصل الشتاء بسبب ارتفاع المياه.

وبعد اكتشاف المغارة العليا العام ١٩٥٨ كان لا بد من توجيه الأنظار لتأهيلها واستقطاب السياح على مدى فصول السنة. وفي العام ١٩٦٣ أعطى الرئيس الراحل فؤاد شهاب تعليماته للبدء بوضع الدراسات الأزمة لتأهيل المغارة، وتمت الاستعانة بمهندسين أجانب (إيطاليين وفرنسيين).

ويضيف: "في العام ١٩٦٥، بوشرت ورشة الإعمار داخل المغارة وأُضيفت ممرات اصطناعية تتوافق مع المعالم الطبيعية لوصل أجزاء المغارة، وكذلك مدرج خاص لاقامة الحفلات الفنية يستوعب عدداً كبيراً من الزوار، كما تمّ إنشاء ناقلات هوائية (تلفريك) لوصل المغارة السفلى بالمغارة العليا وتسهيل انتقال الزوار".

الرحلة إلى المغارة لا تخلو من الإثارة والتشويق، فهي تبدأ بزورق في عالم يجمع بين الواقع والخيال، وفي مغارة أجمل من مغارة علي بابا الخيالية يشق الزورق طريقة ليدخل إلى البهو الأول بأعمدته الضخمة المكونة من المتدليات والرواسب الكلسية ببياضها اللؤلؤي أو الضارب إلى الاحمرار المرجاني, ويظهر تحت المياه (لشدة نقاوتها) قعر الأرض الرملي في بعض الأماكن، أو الصخري في أماكن أخرى. وقد تلامس المجاذيف قعر المياه التي يتفاوت عمقها بين نصف متر وخمسة أمتار.

وفي قاعة المظلة، توجد مجموعة من المتدليات المتألقة بجميع الألوان. وأطلق أسم المظلة على هذا المكان لما فيه من الأعمدة الكثيرة المعرقة والمحنية وكأنها مظلة عملاقة. ويطل الزورق على مجموعة مهيبة علوها ثمانية أمتار تصطف فيها أعمدة من الترسبات الكلسية في شكل متناسق يشبه أنابيب أرغن عملاق. وتنتهي الرحلة بالوصول إلى مياه متدفقة ومنحدرات يصعب عبورها، ويعود الزورق إلى نقطة الانطلاق تاركاً وراءه ممرات مظلمة ومنحدّرات خطيرة لم يتم اكتشافها لصعوبة اجتيازها. ويذكر أن المغارة أُغلقت مع بداية الحرب اللبنانية. لكنها اليوم تحظى باهتمام النادي اللبناني للتنقيب عن المغاور، وهناك خطط طموحة لاعادة تأهيلها واعادة فتحها أمام الزوار.